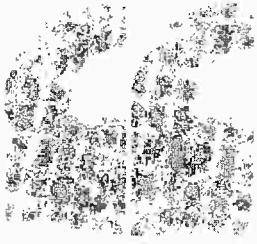

فى اثيلية

الزفـــرة الأخيـــرة ..

اكســـبو ٩٢

فيهـا او أخفيـها!

صـورتنا فى عيـونهم

الـوادى الكبيـــر

متعـــة الفهـــم

الزفـــرة الأخيـــرة..

هبطت الطائرة فى اشبيليه، وتنسمت هواءها.. تطلعت إلى الأفق، فبدت من بعيد أشباح مدينة عربية غرقت فى سحب الماضى.. خطوط المآذن والمبانى وأبراج الكنائس التى تلفعت بوشاح رقيق يكشف عن ملامح معمارية إسلامية.. كستها توريقات عربية، ونوافذ مكسوة بشبكات من الحديد، وواجهات بيضاء لبيوت ذات أفنية داخلية مفروشة بالأشجار.

ظننت أننى هبطت باحدى المدن العربية. لو قلت أنها جدة أو الرياض.. لو قلت أنها فاس أو مراكش. لو قلت أنها دمشق أو عمان. لما أخطأك الظن وإن أخطأك القول!

أول ما يلقاك فى وجه المدينة بعد أن تترك المطار الحديث، مبنى قديم يحمل ملامح عربية إسلامية صرفة.. هل هو نزل قديم؟ هل

هو بيت لأحد سراة القوم فى عهود الثراء والترف الإسلامية الغابرة؟ خمسة قرون منذ سقطت الأندلس، ولكن المدينة رغم التجديدات والتوسعات التى أنفقت عليها الحكومة الأسبانية ٤ بلايين دولار لإقامة المعرض العالمى فيها، مازالت تحمل رائحة ماضٍ عريق لم يندثر تماما. عبقه معلق فى الهواء. وراء البيوت وتحت الأحجار. على قمم الجبال وفى بطون الوديان الخضراء المجللة بأشجار الزيتون. فى الكلمات والأسماء وعناوين الشوارع.. فى اللغة الأسبانية نفسها التي استوعبت وحورت واشتقت ألوف الكلمات العربية.

هذه المدينة الأندلسية كانت قبل سبعة قرون عروس بلاد الأندلس وقاعدتها. مدينة الأدب واللهو والطرب والثقافة. تقوم على الضفة اليمنى للوادى الكبير. وقدشهدت عهودا زاهرة من المجد والعظمة فى عهد دولة الموحدين.. فى لحظات تاريخية حاسمة تأرجح فيها مصير الدولة الأندلسية بين الصعود والهبوط، قبل أن تسقط نهائيا فى دوامة الضعف والفساد والتمزق ..

وتلاها بعد وقت قصير سقوط غرناطة، آخر معقل للإسلام فى الأندلس.. حين دخلت جيوش المسيحيين الأوروبيين الظافرة قصر الحمراء بعد أن خرج منها السلطان المقهور ابن عبد الله محمد بن أبى الحسن، وقدم مفاتيح «الحمراء» لفرناندو الرابع.

وحين ترقرقت الدموع فى عينى الأمير المخلوع، ثم انهمرت على خديه، صاحت به أمه عائشة الحرة : أجل فلتبك كالنساء ملكا لم

تستطع أن تدافع عنه كالرجال! وأطلق الأسبان على هذا الموضع اسم «زفرة العرب الأخيرة» ليصبح أحد المعالم السياحية الشهيرة.

وبدت لى رؤى الحاضر القريب على صفحة ماضٍ غريق!!

اكسبو ٩٢

الحدث الحضارى الكبير الذى مر دون أن يثير اهتمامنا كثيرا فى مصر، هو المعرض العالمى الضخم «اكسبو ٩٢» الذى أقيم فى اشبيليه بأسبانيا فى الفترة مابين أبريل وأكتوبر من عام ١٩٩٢.

وقبل أن يغلق المعرض أبوابه بأيام قليلة، أتيح لى أن أزوره زيارة خاطفة . . ومازال مئات الألوف من الزائرين يتدفقون عليه كل يوم من أنحاء العالم وكان أمل منظمى المعرض الأسبان أن يحقق المعرض أهدافه لو وصل عدد الزائرين إلى ٢٥ مليون شخصا، فإذا به يصل إلى مايقرب من ٣٨مليونا.

وكان هذا المعرض أحد ثلاثة مهرجانات عالمية استضافتها أسبانيا، احتفالا بمرور ٥٠٠ عام على مجد غابر . . حين كلف ملك وملكة أسبانيا الرحالة الايطالى كولومبوس بالإبحار بحثا عن «العالم

الجديد»، وكانت تلك هى بداية اكتشاف أمريكا وسقوط الأندلس . . وغروب شمس الحضارة العربية . . وبداية التحول إلى عصر جديد . . بغيره ماكنا فى العالم الذى نحن فيه الآن، نحاول التعلق بأذياله ولا نكاد!

ولأننا اشتركنا بفرقة لكرة القدم وبعض فرق رياضية متهالكة فلم نهتم إلا بواحد فقط من هذه المهرجانات العالمية، وهو الدورة الأوليمبية التى عقدت فى برشلونة، وأنفقنا فيها من الجهد والمال الكثير، لنتابع خيبة الأمل التى جرت وعادت معها البعثة الأوليمبية بدون ميداليات ذهبية أو فضية!

أما «اكسبو ٩٢» الذى يعتبر آخر مهرجان ثقافى وحضارى يشهده العالم فى القرن العشرين، والذى تنافست فيه ١١٠ دول على إظهار ما لديها . . أى ما تملكه من الماضى والحاضر والمستقبل، ومدى نصيبها فى صنع الحضارة الإنسانية حتى نهاية هذا القرن . . فقد اشتركت مصر فيه بجناح صغير متواضع ولكنه متميز. الفضل فيه لأجدادنا من العصور الفرعونية والرومانية والإسلامية، الذين خلفوا لنا من الآثار والنقوش والكتابات والتى لولاها لما كان يمكن أن يكون لنا وجود على صفحة الحياة فى العصر الحديث.

وللعلم فإن المعرض العالمى فى اشبيليه يختلف عن المعارض التجارية والأسواق الدولية التى تقام فى دول كثيرة كل عام . . وكان آخر معرض عالمى من هذا النوع قد أقيم فى أوزاكا باليابان عام ٧٠،

ومن المنتظر أن يقام المعرض العالمى القادم فى هانوفر ليكون مباراة أخرى فى التفوق الحضارى الذى وصل إليه العالم مع بداية القرن الواحد والعشرين!

فيهـــا أو أخفيـــها!

قصة اشتراك مصر فى المعرض العالمى بأشبيليه . . اكسبو ٩٢ تستحق أن تروى، لأنها تكشف عن غول البيروقراطية الرهيب الذى ينشب أظافره . . ليس فقط فى أداء صغار الموظفين، ولكن أيضا فى عقل المجتمع وفكره والصفوة المسئولة فيه.

فنحن نريد دائما أن نكون على خريطة العالم، وأن نقدم أنفسنا كصناع حضارة عريقة، لم نتخلف عن الركب حتى وإن واجهتنا بعض العقبات والصعوبات. وقد بات إثبات الوجود الحضارى ضرورة من ضرورات السياسة، والاقتصاد، والتقدم . . فى عالم تسقط فيه الشعوب وتعامل كالنفايات مادامت لاتملك رصيدا يؤهلها للمشاركة على مسرح الأحداث.

ولكن المشكلة أنه ما إن تلوح مثل هذه الفرصة، حتى تبدأ

الخلافات والخناقات بين الأجهزة البيروقراطية المختلفة فى الدولة.. طبقا لمثل شعبى يقول : «فيها . . . أو أخفيها!!».

وكانت الموافقة على اشتراك مصر فى هذا المعرض العالمى الهام قد تمت فى يناير ٨٧ أثناء زيارة فيليب جونزاليز رئيس وزراء أسبانيا لمصر واستقبال الرئيس مبارك له . . وقدمت أسبانيا لمصر قطعة أرض هدية لتقيم عليها جناحها الخاص. وبينما كانت كل الدول المشتركة تستعد لإقامة أجنحتها فى المساحات المخصصة لها، كان السكون يخيم على الوزارات والأجهزة المعنية التى كان من المفروض أن تتسابق إلى العمل على إعداد الجناح المصرى فى أفضل صورة ممكنة.

ولم يكن سكونا بالمعنى المألوف، ولكنها كانت حربا تحتية وراء الكواليس وعبر المكاتب. . فهناك جهات متعددة تشارك فى المسئولية: التعليم والثقافة والآثار والخارجية وهيئة المعارض ورياسة مجلس الوزراء التى من المفروض أن تهيمن على كل هذه الجهات. وكل جهة تريد إما أن تأخذ المسئولية كاملة بكل ما فيها من بدلات السفر والانتقال والمزايا، أو تضع العراقيل فى وجه المفوض العام الذى عينته الدولة للإشراف على إقامة المعرض، وهو المستشار الثقافى فى مدريد.

وحتى قبل عشرة أيام من افتتاح المعرض لم تكن القطع الأثرية التى تمت الموافقة على إرسالها للعرض كواجهة حضارية لمصر قد وصلت. . فالمسئولون عن الآثار فى مصر يعتقدون أن الآثار المصرية ملك لهم وليست لمصر، أو أن أسبانيا هى المستفيدة من هذا المعرض

لأنه يقام فى إحدى المدن الأسبانية.. وكان لابد من أن يتدخل رئيس الوزراء لتذليل العقبات البيروقراطية التى يضعها صغار كبار الموظفين.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن كل شئ تم فى اللحظات الأخيرة.. فقد شد الجناح المصرى - الذى ضم قطعا فرعونية ورومانية وإسلامية أصلية - عشرات الألوف من الزائرين.. أربعة ملايين زائر حتى الآن وكان الجناح المصرى أحد ١٥ جناحا يحقق أعلى معدلات الإقبال على زيارته.

صـــورتنا فى عيـــونهم

هل نريد أن تظل صورة مصر الحضارية فى عيون العالم هى أهرامات الجيزة وتوت عنخ آمون، والكاتب الجالس القرفصاء، والمعابد الفرعونية، والتماثيل الرومانية، والمخطوطات العربية والمساجد الإسلامية؟.. أم أن التطور الحضارى والتقدم الفكرى قد نقلنا بضع خطوات إلى الأمام.. فأصبحت مصر هى كل ذلك معا وما هو أكثر من ذلك.. وأن الإنسان المصرى قد قطع شوطا بعيدا من بناء الأهرامات وعبادة الفرعون إلى بناء الجامعات والمنشآت والمشاركة فى الحكم؟

هذه الصورة النمطية المملة لمعارضنا وأجنحتنا فى الخارج، آن الآوان لأن نعيد النظر فيها، وأن نقدم بالاضافة إلى تراثنا القديم ـ الذى لا يد لنا فيه ولا فضل ـ صورة للانسان المصرى الحديث.. لانجازاته وتطلعاته وتحدياته.. فالزائرون الأجانب يعرفون هذه

الحقيقة وينظرون إلى أمجاد مصر الغابرة باحترام وإعجاب شديدين، لايحظى بهما الإنسان المصرى الذى يدب على قدميه فى أواخر القرن العشرين!

وللأسف، فأنت تدخل الأجنحة العربية كلها فى المعرض العالمى بأشبيليه، فلا تجد غير صور تقليدية لأوضاع الحياة البدوية فى الصحراء، ومضارب الخيام المكيفة، وأدوات المدنية الحديثة التى لا يصنعها العرب وإنما يستوردونها. وتبحث عن الإنسان العربى وعن دوره فى هذه الصورة فلا تجد شيئا.

الناس عندنا ينظرون إلى الماضى ويعيشون فى الحاضر بعقلية الماضى. بينما نرى فى الأجنحة الأخرى لفرنسا وأسبانيا واليابان وألمانيا . . حتى سنغافورة وكوريا الجنوبية والمجر وغيرها، صورا لحياة حية متطورة، يتجاور فيها القديم مع الحديث، بما يعكس الارتقاء الذى طرأ على حياة هذه الشعوب، وصورة الحاضر والمستقبل فيها!!

ولكن على قدر الفخامة والضخامة والإسراف الذى تميزت به بعض الأجنحة العربية، والتى أنفق بعضها ملايين الدولارات لإظهارها فى أحسن صورة، إلا أن المحتوى الهزيل لاينبئ عن شئ حضارى أو غير حضارى. ولا يعكس صورة لمستقبل هذه الشعوب وتطلعاتها.

كان شعار اكسبو ٩٢ هو «عصر الاكتشافات» التى حققتها الإنسانية منذ القرن الخامس عشر فى مختلف المجالات حتى الآن، وما تنبئ به فى المستقبل.

ولكنك فى الأجنحة العربية لا تعرف ما الذى أسهم به العرب فى هذا المجال، ولا تجد فرقا بين الماضى والحاضر والمستقبل .. ولا نكاد نذكر شيئا عن الدور التنويرى الذى أسهم به العرب فى نقل الحضارة والمعرفة إلى أوروبا .. وأن بلدا مثل مصر استطاع أن يحتفظ ـ بدرجة ما ـ بقدرته على التواصل والتكيف والإبداع .. ولم يكن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل غير تعبير متأخر عن ذلك الدور الواعد .. ولكننا فى معظم الأحيان لا نعرف ما تحت أيدينا من كنوز وإمكانيات.

الوادى الكبير

الطريق من أسبانيا القديمة إلى أسبانيا الحديثة، يمر عبر كوبرى يربط بين شطرى سفيللا أو اشبيلية . . والكوبرى مشيد طبقا لأحدث تكنولوجيا البناء فوق نهر «جواد الكفير» أو الوادى الكبير كما سماه عرب الأندلس، وبقى الاسم كما هو بعد تحويره إلى اللغة الأسبانية . . مثلما بقيت مئات الأسماء والسمات تعيش وتعشش فى جو الثقافة واللغة الأسبانية.

وعلى الجانب الآخر من النهر أقيم المعرض العالمى اكسبو ٩٢، عبارة عن مدينة صغيرة، أحاطت بالدير الذى دفن فيه جثمان كريستوفر كولومبس مكتشف أمريكا، ونهضت فى أرجائها أجنحة تمثل ١١٠ دولة من دول العالم، تزغرد فى طرقاتها نحو ٢٥٠ نافورة مستوحاة من المعمار الأندلسى القديم، وتنتشر على جانبيها أكثر من ٣٥٠ ألف شجرة تظلل الشوارع فى قيظ الصيف الذى ترتفع درجة الحرارة فيه إلى ٤٠ درجة مثل القاهرة.

وهكذا بدا المعرض العالمى وكأنه لم يكن غير مناسبة لإعادة تعمير الأندلس، التى ظلت مهملة على مر القرون بعد أن طرد منها العرب، وخيم عليها الفقر والتخلف على الرغم من الكنوز الحضارية والسياحية التى تعج بها مدنها . . وتقدر تكاليف إقامة المعرض وما تطلبه من إنشاء شبكة من الطرقات تربط الجنوب الأندلسى بالشمال الأوروبى، وعدد من الكبارى، ووسائل الاتصال والخدمات بنحو عشرة مليارات دولار، أنفقتها الحكومة الأسبانية خلال السنوات الخمس الأخيرة . . لتحيل هذا الجزء من أسبانيا إلى واجهة حضارية لامعة، يعطى لها حق الانتساب لأوروبا . . ويجلو أمام أعين الملايين صورة أسبانيا الحديثة.

وكان لابد أن تأتى هذه الاستثمارات من أوروبا التى اختارت مدريد عاصمة للثقافة الأوروبية هذا العام.

واختارت برشلونة للدورة الأوليمبية، واشبيلية للمعرض العالمى . . ثلاثة مهرجانات عالمية فى سنة واحدة تحاول أن تشد الاقتصاد الأسبانى إلى مرحلة من الانتعاش والرواج، وتثبت قدرة الأسبان على تنظيم هذه المهرجانات العالمية الثلاثة بدرجة عالية من الكفاءة.

ولكن التنافس الحقيقى كان بين الأجنحة الوطنية التى حاولت كل دولة أن تقدم فيها أفضل ما عندها من صور التقدم والتفوق والمعاصرة. . واستخدم بعضها أحدث الوسائل الألكترونية فى العرض.

وفى مثل هذا المعرض العالمى الذى يعد أضخم وأوسع معرض من نوعه أقيم حتى الآن، يستحيل على الزائر أن يشهد كل شئ فيه أو يزور كل جناح من أجنحته.

وتحت ضغط الزحام وطوابير الانتظار الطويلة التى تستغرق عدة ساعات أمام بعض الأجنحة، يحتاج الزائر إلى أسبوع على الأقل لزيارة أهم الأجنحة، فما بالك إذا لم يكن لديك غير يوم أو يومين.. هنا يصبح الانتقاء والتخطيط ضرورة لاغنى عنها.

متعـــة الفهـــم

وأهمية الأجنحة المختلفةفى اكسبو ٩٢ انها تعكس عالمنا الذى نعيش فيه ومدى التقدم الذى حققته كل دولة.

وكانت أسبانيا فى مقدمة الأجنحة التى جذبت ملايين الزائرين، لتثبت أنها لم تعد الساحة الخلفية لأوروبا.

ومن بين الدول الكبرى تقف اليابان وألمانيا فى المقدمة . . مباراة فى التقدم التكنولوجى وقدرة الشعبين على التفوق والصمود . . وربما كان الجناح اليابانى أكثر إبهارا وجاذبية، وهو يعرض سلم التقدم الذى ارتقاه الشعب اليابانى فى غضون مائة سنة أما الجناح الألمانى فهو يزهو بما قدمه للحضارة الأوروبية من فكر وفلسفة وفن وعدد لاحصر له من الحاصلين على جوائز نوبل فى العلوم والتكنولوجيا.

ويعكس المعرض أحوال عالمنا الراهن بعد انتهاء الحرب الباردة . .

فالجناح الروسى الضخم يقف فى حالة من الذهول والارتباك، لا تقل عنه أجنحة دول الكومنولث المستقلة التى انسلخت من الاتحاد السوفيتى القديم.

وعلى الجانب الآخر، يأتى الجناح الأمريكى فى المعرض فى أسوأ أحواله.. يقدم بعض المعروضات الفنية، وفيلما سينمائيا من إنتاج جنرال موتورز. يثير لدى الزائر قدرا كبيرا من خيبة الأمل. فليست هذه هى أمريكا التى أصبحت القوة الكبرى والوحيدة فى العالم.

واذا استبعدنا بعض دول العالم الثالث، التى حال الفقر بينها وبين المشاركة فى المعرض مثل تشاد وبوركينا فاسو، أو حالت ظروف سياسية دونها مثل ايران والعراق وكوبا.. فهناك أجنحة رائعة عديدة لدول صغيرة مثل المجر من أوروبا الشرقية، أو سنغافورة وماليزيا والفلبين وهونج كونج من آسيا.. ثم تأتى أجنحة لدول أخرى خرجت من أسر النظام الشيوعى، ولكن العقلية الستالينية مازالت تعبر عن نفسهافى أكوام الأسمنت التى تميزها مثل بلغاريا وبولندا..

ولكن الأكثر روعة هو أن ترى فى لحظات خاطفة صورة للتطور الإنسانى الذى تحقق على امتداد ٥٠٠ عام وما ينتظر أن تواجهه البشرية من أخطار فى الـ ٥٠٠ عام القادمة.. كيف انتقلت الإنسانية من عصر النهضة إلى الإصلاح إلى مابعد سقوط الماركسية.. وباستخدام أحدث الوسائل فى تكنولوجيا الاتصال، يستوعب المرء أبعاد المسافة التى قطعتها الإنسانية.. وأخطار الفقر والمجاعة والتصحر وثقب الأوزون وأمراض الايدز التى تواجه مستقبل البشرية.. إنها متعة الفهم والمعرفة بكل مسئولياتها!!